

أستاذ هذه المدرسة الأعظم هو الحياة ذاتها ، لا الفكر
المجرد ، ولا المنطق الذهني ، ولا مواضع المجتمع الاصطلاحية ،
ولا قواعد الخلق المتعارفة ، ولا المذاهب الفنية المعنونة ... إنها
ترجع إلى النبع الأول تستقي منه ، وإلى الناموس الخالد تتوخاه ،
ترجع إلى الحياة الطبيعية فتتاقى عنها مؤثرات الإحساس ،
وقواعد المنطق ، وطرائق التعبير ، كما تتاقى أصول السلوك
ونواميس الآداب وقوانين الأخلاق سواء بسواء .

ولكن عدداً من المدارس يمكن أن يقتلذ على الحياة
ثم يختلف في مناهج الدراسة . وهنا نسعفنا نسبة المدرسة المقادية
إلى « الحيوية » في تحديد المنهج . فالحيوية الفائضة المتدفقة ،
الحيوية الظاهرة والباطنة ، حيوية الحس والوجدان ، حيوية
الطبع التي تفيض على الحراس والذهن والضمير في آن ... هي
السمة التي تمجّب بها مدرسة العقاد ، والتي تصدر عنها في السلوك
والاعتقاد ، وفي الفنون والآداب

ولما كانت الحياة هي الأستاذ الأعظم للمدرسة ، فلا عجب
أن يكون طابعها هو الاستقلال في التلقى عن هذا الأستاذ
— في حدود السمات العامة لها — وأن يكون عمل العقاد فيها
هو عمل الرائد الذي يكشف النبع ، ويعهد إليه الطريق . وهناك
يلتقى تلاميذه ومريدوه — وهو مهم — بين يدي الأستاذ
الأعظم . وفضله عليهم هو فضل السبق والإجادة ، وعمامهم معه
هو عمل المتذوق الفاعم المريد ، لا عمل الناقل المقود . فليس
بتلميذ أصيل في مدرسة العقاد من يغفل عن نفسه ليقبله ، ومن
يسلك طريقه ولا يستمد من النبع الخالد معه ، لأنه إنما يضيع
في هذا السلوك سمة المدرسة الأصلية ، وهي سمة الاستقلال
في الأخذ المباشر عن الحياة .

والعقاد — رائد هذه المدرسة — هو ابن الحياة البار ابن
هذه الحياة القائمة على هذا الكوكب ، لا أية حياة أخرى في أي
كوكب آخر ، هذه الحياة بقيودها وضرورتها ، وبآمالها
وأشواقها . الحياة الظاهرة للحس واللسن ، والكنونة في القلب

كتب وشخصيات

٤ - المهرية بنت العربي ١٠٠٠ للعقاد

للأستاذ سيد قطب

مدرسة العقاد

في الأدب والحياة

كل ما قلته عن « حدود المدرسة الأدبية » في كلمة سابقة
من هذه الكلمات ، يمكن تطبيقه بلا تحفظ على « مدرسة العقاد » ؛
فهي مدرسة في الأدب كما أنها مدرسة في الحياة ، يلتقي منها
تلاميذها على سنن واضح ونهج صريح ، ويجدون فيها تفسيراً
معيناً للحياة والفنون ، يشتمل نوع الإحساس ولون التفكير ،
وطريقة التعبير ، بل يشتمل فوق ذلك قواعد المنطق والسلوك ،
وتقويم الأشياء ، والأشخاص ، وتقدير الحوادث والأعمال !
وهي مدرسة متبلورة ، واضحة السمات ، لا يجد الناقد مشقة
ولا عسراً في اختيار عنوان لها ، يمثل ويلخص أكبر ما تستطيع
العنوانات تمثيله وتلخيصه

هي مدرسة « المنطق الحيوي »

والنسبة هنا إلى « الحياة » وإلى « الحيوية » جميعاً ...
إلى « الحياة » لأن مراد الحكم على كل قول وكل عمل هو ما تقوله
الحياة وما تصنعه ، ومنطقها هو المنطق المطاع في جميع الأحوال .
كل ما تصنع الحياة يرجى من بينها قبوله واغتفاره
فإذا أنكروا قبيحاً ، ففي القلب ج من الموت لونه أو شعاعه
وإلى « الحيوية » لأن مراد الحكم على كل قول وكل عمل
هو باعته ، ومدى الحيوية في هذا الباعث . وقد تتشابه مظاهر
الأقوال والأعمال ولكنها تتفق في « الرصيد » المكنون لها
من الباعث الحيوي ليتوحد الحكم عليها ، وقد تتفق مظاهرها
ولكنها تختلف في الرصيد فيكون ذلك مناط الاختلاف

والضعير . وهو - قبل كل شيء - إنسان حي ، ملء إهابه حياة ، بل هو رسول من رسل الحياة المفوضين ، وداعية من دعايتها المخلصين

وما عن ضيق في آفاق النفس والحس تستغرق الحياة حس العقاد ونفسه ، ولكن عن سعة وضخامة في هذه الحياة تستغرق الحس والشعور

يا طالباً فوق الحياة مدى له يسمو عليها ، هل بلغت مداها ما في خيالك صورة تشتاقها إلا وحولك لو نظرت تراها على أننا لا نمتد في تقرير هذه الحقيقة على ما يقول ، فقد يستوحى الأديب قراءاته أو أفكاره ثم يقول ! ولكننا نمتد على الإنسان الحي في العقاد ، وعلى سلوكه في حياته الشخصية والسياسية والفنية ، وعلى اتبائه الحاد لكل نبضة حية في نفوس الآخرين وسلوكهم ، ولكل التفاتة منهم إلى الحيوية النابضة في الكون والحياة . وذلك هو البرهان الحي الصحيح في فهم الطبائع والخصائص والاتجاهات .

وأدرات الاتصال بالحياة عند العقاد هي حواس بقطة متفتحة ، تؤدي إلى حس متوفر مكتمل ، يفضي إلى وجدان زاهر عميق ، وهذه الأدوات كلها مدد من بدهة الطبع وومضات الفكر ، وسبعات الروح ، في توازن وانسجام . وإن الاتصال بينه وبين الحياة ليم تارة من الخارج إلى الداخل ، وتارة من الداخل إلى الخارج (إذا لم يكن بد من هذا التجسيم) ... حاسة توظف حساً فيذكو ويتوهج ، وحس يثير وجداناً فيشع وبفيض . أو وجدان ينفعل ليوقظ الحس فيفتح الحواس . وهذا وذلك على حسب الحالات النفسية وعلى حسب المؤثرات المختلفة . وإن المنافذ مفتوحة علواً وسفلاً ، بل لا علو ولا سفل ، إنما هي قوة واحدة متعددة المنافذ متشبكة المسالك ، متصلة بالحياة ، تلتقي فيها الأرض بالسما ، بل لا أرض هناك ولا سما ، إنما هو عالم واحد والروح والمادة مظهران لحياة واحدة و « الدنيا جمال نصل إليه من طريق الضرورة ، وروح نلمسها بيد من المادة »

وهذا العالم الواحد هو الذي ندرك الظاهر منه بالحس

والحواس ، وندرك المكنون منه بالبدهة والوجدان ، أو ندرك ظاهراً وباطناً في لحظة واحدة بجميع هذه الأدوات ؛ فظاهره إلا رمز لمكنونه . وقيمة هذا الظاهر مستمدة مما يرمز إليه من مكنون . وكلاهما حق وصدق لأنهما شيء واحد في النهاية !

قالوا الحياة قشور قلنا فأين الصميم
إن الحياة حياة فقارقوا أو أقيموا

ولقد كان العقاد - بما فيه من بقطة الحس وقوة الحواس - وشيكا أن يبذل إعجابه كله للحياة المحسوسة الظاهرة وللحيوية المتدفقة في الحس والفرزة ، لولا قسط من « الصوفية » - ولا يجب أحد لهذه الكرامة - ففي العقاد إيمان عميق بقوة مجهولة تصرف الحياة وتسيطر على أقدار الفرد والنوع (والصوفية في أسامها البسيط هي هذا الإيمان بالمجهول) . ولكن هذه القوة المجهولة التي يؤمن بها العقاد إنما تصرف الحياة وتسيطر على أقدار الفرد والنوع ، لمصلحة هذه الحياة نفسها وللرقى بالإنسانية في مدارج السكال ، لا لغرض آخر من الأغراض النائية المجهولة !

هذا القسط من الصوفية - بهذا المعنى - يمتزج بالحيوية الحسية ، فيخرج منها صراج جديد فيه من هذه وفيه من تلك على غير تميز بينهما ولا انفصال

ولقد كان العقاد كذلك - بما فيه من محور الذهن ، وبقطة الوحي وشيكا أن يبذل قواه كلها للفكر والنطق ، لولا فيض من حيوية الطبع يحرف قوى الذهن والوحي لتستحيل جنوداً لهذا الطبع الحي ، تضرب بسلاحه ، وتستمد منه القوة وله عليها السيطرة في النهاية !

وكثير من الفنانين يقوم في نفوسهم صراع بين مثلهم العليا وبين سلوكهم في الحياة . بين ما يصرع في كيانهم من غرائز يستقذرونها وما يخلق في أرواحهم من أشواق يهفون إليها ؛ فأما العقاد فقد عقد صلحاً مبكراً بين غرائزه ووجداناته فهو لا يفعل ما يستقذره ولا يستقذر ما يفعله ، وبين ذلك قوام وللحيوية عند العقاد شفاعتها الحاضرة فيما تأخذ وما تعج

من الأمور ... أقول شفاعتها؟ ألا إنها ليست في حاجة إلى الشفاعة؛ فهي نفسها الشفيع الذي لا يرد له كلام، والمفوض الذي لا يسأل حتى عن أوراق الاعتماد. وليست هي إذن في حاجة إلى الشفاعة والاعتذار بقدر حاجتها إلى الثناء والإطراء. وهكذا يجب بمحمد في الأنبياء، وعمر وأبي بكر والإمام في الخلفاء، وبالصديقة بنت الصديق في النساء، كما يجب بالمتنبي وابن الرومي في الشعراء، وبينتشة وجيئة في الأدباء، وبسمند ومصطفى كمال في الزعماء ... وهؤلاء وأولئك وسواهم ممن نالوا إعجابه، إنما يلتقون أولاً في صفة الحيوية، ثم يختلفون في مدى هذه الحيوية ونوعها، وفي اتجاهها ومظاهرها كل حسب وظيفته في الحياة.

وإن إعجاب العقاد بالحيوية ليتردد فتشاً عنه آرائه في الحياة والأخلاق، وفي الانفعال والسلوك، وفي الأحداث والأشخاص، وفي الفن والنقد. وما من رأى له في المدارس الأدبية وفي طرائق الأدباء، وفي الفن والسياسة وفي الارتياح والاعتقاد، بهم أو يستغلق إذا عالجته الناقد بهذا المفتاح!

أعمال العقاد الفنية لتؤلف جميعها نشيداً واحداً مطرداً في تمجيد الحيوية بكل معانيها وأشكالها، منذ الجزء الأول من ديوانه إلى الجزء الأخير، ومنذ «خلاصته اليومية والفصول» حوالى سنة ١٩١٤ إلى مؤلفاته الأخيرة سنة ١٩٤٤. وتلك علامة الصدق بلا جدال.

وإنه ليس في فلسفته الموحدة، في طريقه المستقلة، فيلتقي بالكثير من الأدباء والفلاسفة والمفكرين في الشرق والغرب، ولكنه لا يسير أحداً منهم إلا إلى الذي الذي يتفق مع فلسفته الخاصة، ثم يفترقان فيمضي هو على نهجه بطريقته، ويدع صاحبه يمضي لطريقته، في سلام أو في خصام! وهنا يقول من لا يلتفتون لغير الظواهر: إنه يأخذ من هذا أو من ذاك على معنى غير معنى الدراسة والالتقاء.

ولا بد قبل أن نختم هذه الكلمة أن نلاحظ بحسب سمة في النفس والعكر تجمل هذا الرجل ذا الشخصية الواضحة والفلسفة الخاصة يستمع ويهش ويتجارب مع جمع حاشد من أنماط الشخصيات والفلسفات

من المعرى الذي يقول:

تسريح كفك برغوثك ظفرت به

أبر من درهم تطفيه محتاجاً إلى المتنبي الذي يقول:

ومن عرف الأيام معرفتي بها وبالناس روى رحمه غير راحم
ومن ما كس نوردو إلى شوبهور، ومن تاجور إلى نيتشه،
ومن جيتي إلى توماس هاردى، ومن خالد بن الوليد إلى عمرو
ابن العاص، ومن مصطفى كمال إلى غاندي، ومن عمر بن أبي
ربيعة إلى جميل بثينة ... إلى آخر هذه الشخصيات التي لا تقل
الفوارق بين كل اثنين منها وبين كل واحدة منها والأخرى
عن الفوارق بين المعرى والمتنبي في شتى الاتجاهات

ولا بد أن نلاحظ بحسب ذلك تلك المقدرة التي تقيم عظمة
أبي بكر أمام عظمة عمر الندين المتقاربين في نوع العظمة، والتي
تفسر تصرف عمر مع خالد، وتصر عاتشة مع علي، والتي
تنصف الإمام من الصديقة، وتنصف الصديقة من الإمام
وليس هذا عن منطق لبق، ولا عن مهارة ذهنية، إنما هي
سمة في النفس، ورعاية في الفكر، وانفساح في الإحساس،
برؤية جميع الجوانب، وتحليل وجهات النظر، وتقدير
جميع النزعات

هذا ولم يتسع المجال لأن نذكر شيئاً عن خصائص العقاد
الفكرية، خصائص التحليل والتعليل، تلك التي تطرد في كل
ما يكتب، وإن كان اعتباده الأكبر في التعليل والتحليل على
المنطق الحيوي لا المنطق الذهني. وخلاصة ما يقال في دراساته
التحليلية أن «برهانه الفصل تابع لاعتقاده الجمل، وليس
اعتقاده تابعاً لبرهانه في كل حين، كما يقول هو في إحدى
مقالاته عن نموذج من الناس يستحسنه ويؤمن على طريقته
في الاستدلال

ولم نجعل كذلك طريقته في العرض، وأسلوبه في التعبير،
ولعل القاري يجد شيئاً من هذا فيما كتبناه عند الموازنة بينه
وبين المازني، وفيما كتبناه في العام الماضي عن «عبقريه محمد»
وهي نموذج كامل لدراسة الشخصيات.